ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد : 06، العدد : 01 (2021) ص : 98 – 107

أسلبة التصوّف في الشعر الجزائري المعاصر " ثروة عمري " لقدور رحماني أنموذجا

The stylization of Sufism in the contemporary Algerian poetry ''the fortune of my life '' by kadour rahmani as a model.

د.عيسى شنافي

جامعة محمد بوضياف المسيلة – الجزائر –

Aissatrans10@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
15 سبتمبر 2020
تاريخ القبول:
29 نوفمبر 2020

الكلمات المفتاحية :
- ✓ الأسلبة
- ✓ قدوررحماني ، التصوف
- ✓ الشعر الجزائري المعاصر

الملخص:

اكتسبت النصوص الشعرية الجزائرية المعاصرة ثراء فنيا من خلال انفتاح الشعراء على المرجعيات التراثية وأسلبتها، ولعلّ من أبرزها التراث الصوفي الذي أثّر بشكل كبير في أساليبهم التعبيرية، وزاد من جماليات القصيدة وفي عمق مضامينها، وقد استثمر الشاعر قدور رحماني ذلك في صقل تجربته الشعرية بطريقة تجمع بين الذات والواقع وسنحاول في هذه الدراسة لديوانه " ثروة عمري " الكشف عن أهم السمات الأسلوبية الصوفيه التي وظّفها الشاعر قدور رحماني في بنائه الشعري.

Article info

Received
15/09/2020
Accepted
29/11/2020

Keywords:
- ✓ *Stylisation*
- ✓ *Kadour Rahmani, Sufism*
- ✓ *Algerian*
- ✓ *contemporary poetic*

Abstract :

Acquired contemporary Algerian poetic texts a richness artistic through the poets 'openness to the traditional references and their stylization and perhaps the most prominent of these Sufism heritage, witch greatly influenced their expressive styles and increased the aesthetics of the poem and depth of its contents. The poet Kaddour Rahmani invested this in refining his poetic experience in a way that combines self and reality, and we will try in this study for his collection "the fortune of my life" the detection of most important stylistic features of Sufism that the poet Kadour Rahmani employed in his poetic construction.

مقدمة

حضي التراث العربي القديم ومنه ظاهرة التصوف بحركة إحياء ودراسة في الأدب الحديث والمعاصر ؛ حيث وجد فيها الشعراء والنقاد "مرتكزا تراثيا يتماشى والتأثر بالمذاهب الغربية التي تجعل للخيال النصيب الأوفر في الشعر كالرومنسية والرمزية والسريالية..." (العوادي، د ت، صفحة 262)

ولقد أفادت الصوفية في توسيع حدود الشعر وآفاقه من خلال تقديم وسائل إبداعية جديدة يحتاجها الشاعر المعاصر للتعبير عن خلجاته الحسية والنفسية بأساليب فنية تحمل عبق الوجد الصوفي "فالحضور الصوفي ذو سمة تواصلية بإنتاج دلالات جديدة قائمة على دعامة تراثية"، وإسهامه في دعم الاتجاه التخييلي الباطني في الشعر شأنه في ذلك شأن النزعات الباطنية التي تنحو منحى تأمليا في تحصيل المعرفة والتي تقصد بالألفاظ والمعاني غير ما يفهم منها أصحاب الظاهر .

والتماهي بين التجربة الشعرية للصوفية والشعراء المعاصرين تجمعه مواطن تشابه في ظروف إنتاج النصوص كالإحساس بالاغتراب، "فهما يشتركان في منبع الإلهام الذي يمتح من الباطن ويختلفان في حقيقة التجربة التي ينهل بها الشاعر المعاصر في صميم العالم ، بينما يحصّلها الصووفي بالفناء عنه" (العوادي، د ت، صفحة 262).

وإذا كانت التجربة الصوفية القديمة "قد تماهت مع المطلق قاصدة بذلك تعرية الباطن وصوغ علاقات مع الذات الإلهية فإن التجربة الصوفية المعاصرة هي محاولة لتحقيق الكمال الفني عن طريق اللغة...وتتأسس هذه التجربة الصوفية المعاصرة على أسلبة اللغة، وجعلها المعشوق ذاته .وهذه الأسلبة الخاصة منوطة بخلق برازخ دلالية تبنى وفقها التجربة الصوفية بما أنها تجربة صوفية قبل كل شيء" (الضمور، 2013، صفحة 437)

وميل الشعراء الجزائريين المعاصرين إلى أسلبة التصوف نابع من الاهتمام أكثر باللغة وعلاماتها وأساليبها الذي ولدته الحاجة إلى معايشة حسية وجدانية مع الكون واللغة. والشاعر (قدور رحماني) من الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين اتّسمت الكتابة الشعرية عندهم بالأسلوب الصوفي بصورة تنمّ عن فقه ودراية عميقة بالتراث الصوفي، فاستخدمه في صوغ تجربته الخاصة التي لوّنها باستحضار الشخصيات الصوفية وخطاباتها والرموز الصوفية ومدلولاتها.

1. بين التجربة الصوفية والتجربة الشعرية

إنّ إطلاق صفة الصوفية على الشعر المعاصر فيه عمومية وعدم ضبط للشروط التي تجعل من الشعر صوفيا أو لا. وهذه القضية لا بدلها من فرز وتوضيح – خاصة لدى الطلبة – حتى يدركوا الفرق بين خصائص التجربة الصوفية الحسية التي عبّر عنها شعرا، وبين تجربة الشاعر المعاصر التي نهل فيها من أساليب الصوفية.

وقد عالج هذه القضية عدة نقاد وباحثين ولعلّ أبرزهم الدكتورة آمنة بلعلى – وهي المتخصصة في الخطاب الصوفي – وتقول في ذلك: "ليس كل أدب يستعمل مصطلحات صوفية يعد تصوفا ، فالتصوف والأدب ، وبالأخص الشعر بينهما وشائج قربى وتفاعل كبير سواء

على مستوى التجربة أو الكتابة ...وتوطد العلاقة الأسلوبية بين الشعر والتصوف راجع بالدرجة الأولى إلى الرؤية التي توجه كلا منهما وهي الرؤية المجازية للكون وللذات في علاقتها بالوجود" (كعوان، 2015). ولتحديد الكتابة الصوفية وتبيان مقاصدها وضع الناقد المغربي (محمد مفتاح) ميثاقا صوفيا – إن صحّ التعبير – والذي لابد أن تتوفر فيه أربعة أركان وهي (مفتاح، 1987، صفحة 130) :

- الغرض المتحدث عنه
- المعجم التقني
- كيفية استعماله
- المقصدية

وهذه الأركان "تكون وحدة غير قابلة للتجزئة ، فمثلا اذا تناول مؤلف بعض الأغراض الصوفية ولم يستعمل المعجم الصوفي يضيع منه البعد الفلسفي للتصوف ، والذي يستعير القاموس الصوفي ولا يستعمله في غرض من أغراض الصوفية المتعارف عليها فلا تمس كتابته كتابة صوفية مثل ما نجد في الشعر الذي يستمد من القاموس الصوفي واذا هدفت كتابة ما إلى بعض مقاصد الكتابة الصوفية ولم تستعمل لغتها ولم تطرق أغراضها فليست بها كالكتابة الإصلاحية ، وإذا ما تناول مؤلف ما الأغراض الصوفية كلا أو جزءا ، واستعمل القاموس نفسه ،ولم يقصد ما يهدف إليه التصوف فكتابته ليست بصوفية كما نجد في كتابات الحب" (مفتاح، 1987، صفحة 131).

2. التلقي في شعرية الأسلبة الصوفية

إنّ طريق الفهم للنص رهين قارئه ومتلقيه، ومدى قدرته على استيعاب حمولاته الدلالية، وتمّكنه من فك شفراته، وإدراكه العميق لمنطلقاته الروحية والفكرية. وإذا كانت عملية تلقي النصوص الصوفية في مهدها قد شابها الخلل لسببين: أحدهما يرتبط بطبيعة النص ذي اللغة الإشارية الاصطلاحية الطلسمية الخاصة، والثاني يرتبط بالقارئ ذاته، الذي يجهل الكثير عن كيفية تحليل هذا النص المرتبط بالتصوف من حيث هو تجربة تحيطها الأسرار التي يصعب اكتشافها" (خوالدية، 2014، صفحة 175) الأمر الذي عطّل وشوّش على تقبّل هذه النصوص وأدى إلى الاصطدام بالسلطة الدينية والسياسية في ذلك الوقت.

فإنّ المتلقي للشعر الصوفي المعاصر لا بدّ له من جهد مضاعف لتحصيل معانيه وجمالية الأسلبة الصوفية فيه، فبالإضافة إلى الدراية بالاستراتيجية اللغوية والرمزية لبناء الخطاب الصوفي، فعليه بالاستقصاء والبحث عن القرينة التي استعارها الشاعر المعاصر من التراث الصوفي، ومن ثم الفصل بين معناها الظاهر (القديم)، والكشف عن المعنى الباطن (الجديد)، وهنا يكمن تحقيق متعة التلقي في رصد أغوار المعاني المركّبة التي تجتمع في دوال محددة ومتشابهة، وتتشضى إلى مدلولات عديدة ومختلفة.

3. تمظهرات الأسلبة الصوفية في ديوان "ثروة عمري" لقدور رحماني

1.3. استدعاء الخطاب الصوفي

من التقنيات التي استعملها الشاعر المعاصر في أسلبته للتصوف استدعاء الخطاب الصوفي"وتتمثل هذه الآلية في توظيف الشاعر لقول يتصل بشخصية معينة سواء كان صادرا عنها أو موجها لها، ويصلح للدلالة عليها في الوقت نفسه فتصبح وظيفة هذا القول وظيفة مزدوجة هي التفاعل الحر مع شفرات النص، واستحضار الشخصية في ذهن المتلقي" (البارودي، 2009، صفحة 137). والأسلوب الشائع في توظيف ملامح الشخصية الصوفية من خلال استدعاء خطاباتها "هو توظيفها طرديا بمعنى التعبير بها عن تجربة معاصرة تتوافق دلالتها طردا مع الدلالة التراثية للشخصية" (زايد، 1997، صفحة 203).

ومن أهم الشخصيات الصوفية التي كانت الأكثر تواجدا وتناقلا لسيرتها عن طريق دراسات المستشرقين أو عن طريق استلهام واقتباس خطاباتها الشعرية (الحلّاج). نظرا لظروف وقصة موته فهو يعتبر شهيد الصوفية خصوصا ما تعلق بمعاني الحلول والاتحاد وخطابه الشهير (ما في الجبة الاّ الله)، وكذا في أشعاره ومنها قوله (رحماني، 2007، صفحة 75):

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
نحن مذ كنا على عهد الهوى تضرب الأمثال للناس بنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
أيها السائل عن قصتنا لو ترانا لم تفرق بيننا
روحه روحي وروحي روحه من رأى روحين حلّت بدنا

ولقد اقتبس الشاعر قدور رحماني هذا المعنى في التعبير عن حبه الكبير لوطنه في قوله (رحماني، 2007، صفحة 126) :

وطني
كم أنت أنا ..
إن كانوا قد سرقوا منا زمنا
لا يمكن أن يمحوا فينا الوطنا
وطني
إن أنت لمست حريقك عندي يمضغني
فلأنك أنت أنا ..
لو رحت تفتش عن جسدي
في الجبة لن تلقى
إلا الوطنا

وفي قوله (رحماني، 2007، صفحة 74) :

وطني يا أيها الحب الذي ضمّ صدري قبل يوم المولد
لك في كل هبوب وردة وهزار بين أمسي و غدي
كل عرق منك عندي نازف فكلانا واحد في جسد

وظّف الشاعر قدور رحماني مبدأ الحلول و الاتحاد من وازع نفسي للتعبير عن مدى حلول الوطن فيه واتحاده معه ما جعله يعكس إحساسه وشعوره بكل آلام وهموم وطنه، وهذا ما يعكس واقعية الشاعر والتزامه بقضايا وطنه.

يقول عز الدين اسماعيل :"الصوفية الملتزمة موقف يزاوج فيه الشاعر بين الفن والالتزام فالفن بطبيعته يرفض الواقع بمقدار ما ينغمس فيه وحين تتخلى الصوفية عن وجهها السلبي لكي تنغمس في الواقع الذي ترفضه و تبتعد عنه فإنها تصبح بذلك فنا تصبح شعرا إنها تجعل من كشوفها وسيلة لتغيير الواقع وهي تغير الواقع بالكلمة الشاعرة" (منصور، د ت، صفحة 169). ومن الخطابات الصوفية المشهورة أيضا مقولة النفري (كلما اتّسعت الرؤية ضاقت العبارة). وتعكس هذه العبارة عجز الكلمات عن حمل المدلولات وقصر التعبير بها عن كل ما يحس به الصوفي ويكابده ويشاهده.

وقد وظّف الشاعر قدور رحماني هذا المعنى في محطات شعرية مختلفة منها قوله (رحماني، 2007، صفحة 66):

إنّي أعبّر بالصدى المكسور
في قلبي وفي قفر النوى..
لغتي مسامير تلوت في فمي
وفتوح حلمي
عوسج
يصفر في مرآة دمعي والدم

وفي قوله (رحماني، 2007، صفحة 67) :

ماذا أقول إذا لم تستطع لغتي
أن تحتوي
جرحها المفتوح في شفتي
والقلب يحضن كالقنديل جمرته
وناره

يشكو الشاعر في هذه المقطوعات الشعرية من عجز الكلمات على التعبير عن الحزن الكبير الذي يعتريه ممّا يراه يحدث من تقتيل وتشريد للشعب الفلسطيني الأعزل الذي اكتوى بنارين نار الاحتلال الصهيوني الغاشم ونار الصمت العربي والخذلان.

2.3. أسلبة الرمز الصوفي

إنّ الرمز "صرف عن المعاني الظاهرة طلبا للمعاني الباطنة ، وهذا توجيه قصدي للفهم وتعميق له وهو في ذات الآن توجيه يترك الباب مفتوحا على أيّ معنى يطرأ على ذهن القارئ عند التأويل والتدبّر" (خوالدية، 2014، صفحة 25). والرمز أسلوب مائل للكتابة الصوفية أملته عليهم ظروف" ووضعية التعارض مع السلطة الدينية في تلقي الخطاب الصوفي من خلال إعطاء الحب الإلهي البعد الحسي شكلت نقطة تأزّم لغوي في التعبير عن هذه التجربة الحسية فلجأ الشعراء الصوفية إلى التقيّة اللغوية من خلال لجوئهم إلى الترميز اللغوي" (بلعلى، 2001، الصفحات 21-22).

ويشكّل الرمز الصوفي عند الشعراء المعاصرين متكأ ومبعثا للتجاوز والتحرر والانطلاق نظرا للتعالقات الفنية والموضوعية بين التجربة الصوفية والتجربة الشعرية (كوسة، 2017، الصفحات 84-89). ولعلّ اهتمام الشاعر (قدور رحماني)، وتخصّصه الأكاديمي في الشعر الصوفي ترك أثره البالغ في أسلوب كتابته، وطريقة نسجه وخلقه للصور الفنية التي كان الرمز الصوفي فيها ذا مسحة جمالية فنية أين أشرك ومزج فيه بين عوالم التصوف ومقاماته وبين أحوال العاشق ومكابداته.

أ. الحضور

الحضور عند الصوفية هو "تنبه خاص يطرأ على قلب العبد الى أمر معين فيحضر معه وفي هذه الحال تفترض الغيبة" (الحكيم، 1971، صفحة 227)، فالقلب هو القطب الرئيسي في الإنسان منه تشع المواجيد التي تستجيب لها الجوارح فتظهر فيها، فالسمع مثلا لا يصل إلى مرتبة الحضور إلا إذا كان القلب في حالة حضور، فغفلى القلب لا تسمح بحضور أي حاسة من حواس الإنسان (الحكيم، 1971، صفحة 228). ولقد وظّف الشاعر (قدور رحماني) رمز الحضور في العديد من قصائده منها قوله (رحماني، 2007، صفحة 47):

فمن أي خال وضيء
قطرت نهيرن من ظلمة وشعاع ؟
على حجري وانسحاقي
ومن برق أي مقام
تلألأ
فيك زحام الحضور
على قامة من فراق؟

وفي قوله (رحماني، 2007، صفحة 14):

تبكي معي شراشف الخمار والحجاب
مثل سراب عالق
في وردة الغياب

وفي قوله أيضا (رحماني، 2007، صفحة 31):

فتوح من الشهد
تروي حضوري
وتروي غيابي
فيكبر فيّ نواح العناق

هي مشاهد عديدة يصور فيها الشاعر لحظات انقطاعه عن العالم وحضور قلبه وجوارحه مع حبيبته فلا يرى ولا يسمع سواها.

ب. التجلي

وهو عند المتصوفة "تجلي الحق بالعالم. من حيث كونه مظهرا ومجلى للحضرة الإلهية" (الحكيم، 1971، صفحة 504)، فهو رمز للانعكاس شبه فيه الإنسان العارف بالمرآة، وقد استخدم الشاعر هذا الرمز في قوله (رحماني، 2007، صفحة 86):

يا رائعي حبك الصوفي صممني كونا تجلى له في الصحو مولاه
وحدي أنا وأنا وحدي منارته ونجم حيرته ليلا وأنثاه

وظّف الشاعر في البيت الأول رمز التجلي فأخذ منه صفة الانعكاس محولا إيّاها بصورة فنية من موضوع الحضرة الإلهية والعشق الإلهي إلى حب الوطن، فهو العاشق المتيم بحب الوطن وهو الحامل لهمومه وآلامه فصورته تتجلى دائما في واقعه وفي مخيلته. وفي قوله (رحماني، 2007، صفحة 76):

صبح التجلي داخلي متفتح كالأفق يرقب وردة الميلاد
في العالم العلوي وجهك صورتي زظلال شعرك قامتي وبلادي

ينقل الشاعر في هذه الأبيات رمز التجلي من صفته العشقية الإلهية إلى العشق الإنساني فيصف شدة ارتباطه بحبيبته وتطابق النفوس والصفات والآمال والأحلام.

ج. الشطح

الشطح في اللغة هو الحركة يقال شطح يشطح إذا تحرك أمّا عند الصوفية فهو "العبارة المستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته ...والشطح مأخوذ من الحركة لأنها حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم، فعبّروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها" (الحكيم، 1971، الصفحات 639-640).

وهي في العموم كلمات وحركات خارجة عن المألوف والطبيعي في مرحلة خارجة عن سيطرة الإنسان بفعل مؤثرات عاطفية أو نفسية، ولقد استخدم الشاعر (قدور رحماني) هذا الرمز ومعناه في بعض أشعاره منها قوله (رحماني، 2007، صفحة 23):

إلى أرج الفتح

أنت

خذيني..

وفوق

ذرى البوح

رشي نقاوة حضني

لتحمل مني النجوم جميعا

حقول انخطاف وغابات شطح ...

في هذه الأسطر الشعرية يصوّر لنا الشاعر حالته إذا ما كان في موقف البوح بمشاعره لحبيبته ويزداد فيض مشاعره، فساعتها يخطف من هيئته الطبيعية وتنفلت منه الكلمات والحركات الغريبة. وفي موضع آخر يقول (رحماني، 2007، صفحة 27):

تستيقضين

بداخلي كسلانة

كقصيدة

تنمو على صفحاتي

حاصرت كسرى

في شواطئ ناره

وطويت في عينيك ممتلكاتي

فجرت ذاتي

بالحضور وحينما

فنيت عروقي استقضت شطحاتي ..

يعبّر الشاعر في هذا المشهد الرومنسي عن ذوبانه وانصهاره في عشق حبيبته، فهو حينما يحضر معها بقلبه وكل جوارحه محمّلا بذلك الكم الهائل من المشاعر، فإنه يغيب عن وعيه ويدخل في فوضى الكلمات والحركات.

خاتمة

لقد شكّلت الصوفية كتجربة حسية ترجمتها الأقوال الشعرية مصدر إلهام وتأثير في الشعراء المعاصرين الذين استفادوا من أدوات الشعرية الصوفية وكيّفوها مع تجربتهم الشعرية التي تعبر عن الذات وعن الحياة ، فالصوفي إذا كانت الأنا مركز وجده ومكابدته، فالشاعر المعاصر مرتبط بكل القضايا التي يعيشها ويتفاعل معها.

وبعد دراستنا لديوان "ثروة عمري" لقدور رحماني كشفنا عن كتابته الشعرية التي تنحو لأسلبة التصوف وجعله فاعلا فنيا في خلق الصور، فحملت لغته الشعرية معاني رمزية عبرت عن واقع الشاعر المعيش وانتقلت من ارتباط البوح الشعري ما بين الصوفي وربه إلى ذات الشاعر وقضاياه الإنسانية فعبّر بها عن مواضيع مختلفة كان الحب دافعها الأول كالغزل والوطن والقضية الفلسطينة.

قائمة المراجع

المؤلفات

01- حسين العوادي عدنان، (د ت)، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، بغداد، دار الحرية.

02- مفتاح محمد، (1987)، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الرباط، المركز الثقافي العربي.

03- خوالدية أسماء، (2014)، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا، الرباط، دار الأمان.

04- البارودي حصة، (2009)، التناص في الشعر العربي الحديث البرغوغي نموذجا، الأردن، دار كنوز المعرفية العلمية للنشر والتوزيع.

05- زايد علي عشري، (1997)، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي.

06- عباس قاسم محمد، (2002)، الحلاج الأعمال الكاملة، مصر، رياض الريس للكتب والنشر.

07- رحماني قدور، (2007)، ثروة عمري، الجزائر، منشورات أرتيستيك.

08- منصور إبراهيم محمد (دت)، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، مصر، دار الأمين للنشر والتوزيع.

09- بلعلى آمنة، (2001)، الحركية التواصلية في الخطاب الصوفي، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

10- الحكيم سعاد، (1971)، المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة، بيروت، دندرة للطباعة والنشر.

المقالات

كوسة علاوة، (2017)، نقد الخطاب الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر، مجلة دراسات معاصرة ، العدد02، جوان، ص84-88.

المداخلات

الضمور عماد عبد الوهاب، (2013)، تجليات الصوفية في ديوان (أروى) للشاعر نادر هدى، مؤتمر النقد الدولي الرابع عشر، جامعة اليرموك،إربد.

مواقع الانترنيت

01- آمنة بلعلى، (2015) ، ظاهرة التصوف في الكتابة الأدبية (ليس كل أدب يستعمل المصطلحات الصوفية يعد تصوفا) موقع جريدة النصر http://www.annasronline.com

02- محمد كعوان، (2015)، ظاهرة التصوف في الكتابة (التجربة الصوفية المعاصرة تتأسس على أسلبة اللغة) موقع جريدة النصر http://www.annasronline.com